اللغة اللبنانية !.....(١)

كنا باللغة العامية ، فإذا بنا اليوم نصير إلى اللغة اللبنانية ! ومن يدري فقد نهبط غداً أو بعد غد إلى اللغة القروية ، فيكون لكل قرية لغتها المستقلة ـ وهذا بالقياس إلى ظاهر حجتهم ـ أدل على الاستقلال ، وأحفظ له ، وأبعد عن كل صلة بالعرب والعروبة .

---

(١) الذي قال باللغة اللبنانية ، أرادها لغة فخر الدين المعني ، ونحن نرحب بهذه الدعوة على شروط ثلاثة :

١ ـ أن يثبت أن فخر الدين : العربي الصريح ـ ابن ربيعة ـ كانت هذه اللغة العامية اللبنانية الدارجة اليوم ، لغته .

٢ ـ أن توجد أولاً هذه اللهجات اللبنانية نفسها ، التي تختلف لفظاً واستعمالاً ، ومخارج حروف وتقديماً في الحروف وتأخيراً فيها ، بين منطقة ومنطقة ، وبين جماعة وجماعة ، وبين مدينة ومدينة ، بل في القُريَّة الواحدة باختلاف القبائل العربية التي ينتمي إليها كل بطن من بطون هذه القبائل .

٣ ـ أن يجمع اللبنانيون ، وأن تتفق كثرتهم على هذه اللغة اللبنانية ، لكي يواجهوا العالم بلغة لبنانية موحدة ، لا اختلاف بين استعمالاتها ، ولا بين جملها ، مفردة ومركبة وبين ألفاظها ، وإلاّ ظل الأمر كما هو مهزلة من المهازل

وعشْ رجباً ترَ عجبـاً

أما القول بأن الرئيس المصري إنما يقرّب خطبه من أفهام الجماهير العامة ، أنه يلقي بعضها باللغة العامية ، فهذا غير صحيح ، فهذه الخطب على ما فيها من مبادىء صالحة ، وآراء صائبة يضعف من قيمتها البيانية ، أنها تلقى بلغة عاميـة ، إذا فهمها غير المصري سامعاً ، فلا يفهمها غيره قارئاً .

ولقد كان سعد زغلول ، وكان يُعَدُ من خُطَباء العالم ، يلقي خطبه بلغة عربية فصيحة ، كان يفهمها الشعب المصري في عصر كان العلم فيه محدوداً نطاقـه ، مقصوراً على طبقة خاصة من المصريين . =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وموضوع اللغة العامية ، موضوع تافه ، هو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، عاناه من عاناه ، من جماعات الاستعمار وصنائعهم منذ عشرات السنوات ، وظل واقفاً في حيث بدأ . وهو موضوع ما كان يستحق أن يُعنى به ، أو أن يُبحث فيه ، لولا ما وراءه من خبايا يكمن فيها الاستعمار ، فإذا آنس في القوم غفلة ، ورأى اختلاف العرب في جملة أمورهم ، عاد يطل برأسه لعله يجد فُرجة يتسرب منها إلى اللغة ، بعدما كان من الفرجات التي وجدها أو أوجدها له الاستعمار فتغلغل منها إلى السياسة .

والقول باللغة العامية قول ظاهره الغيرة على العربية ، وباطنه من قبله القضاء عليها ، وتمزيق وحدتها وبعثرة أقطارها .

وقد كتب كثيرون يسفهون هذا الرأي ، ويبيّنون خطله وخطأه ، وأنه يستحيل تنفيذه ، وأن اللغة العامية لغة عاجزة قاصرة ، إذا صلحت للمحادثات البيتية ، والمعاملات السوقية ، فهي لا تصلح للعلم ، ولا للمواقف الخطابية التي تتطلب البلاغة ، وصحة الأداء والبيان ، حتى في الجماهير العامية والمجتمعات الشعبية . . . وقد كنت في جملة من تعرض لهذا الموضوع وألقى دلوه في الدلاء . وكان من أقوال المدافعين عن العربية الفصحى ما قطع كل حجة ، فأسكت كل صوت .

= وعلى ذكر اللغة اللبنانية تعود بنا الذاكرة إلى اللغة السورية .

كان في رئاسة بلدية دمشق عهد الانتداب ، رجل كثير الموالاة لرجاله ، شديد الاندفاع في مسايرتهم . وقضى عليه منصبه في يوم من الأيام أن يقرأ خطبة في حضور المفوض الفرنسي تكلم فيها عن اللغة السورية ، ذهاباً منه إلى أن الحديث عن العرب وعن اللغة العربية من شأنه أن يغضب الفرنسيين . فكانت أهزوءة أضحكت الناس كثيراً ، وشغلت الصحافة طويلاً .

واليوم يقوم في لبنان من لا يقف عند الكلام عن اللغة اللبنانية كما فعل زميله السوري ، ـ بل يدعو الى لغة لبنانية مستقلة بنفسها ، قائمة بذاتها ، منفصلة عن اللغة العربية ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والآن وقد تم على العرب ما تم ، ووقعوا في ما وقعوا فيه ، عاد هذا الصوت المنكر يرتفع ، ورجعت بعض النفوس المريضة إلى أقلامها المأجورة الوضيعة ، ووجدت لها في بعض الصحف مجالاً للقول ، فلا نرى بدًّا من العودة إلى هذا الموضوع ، والإشارة إلى بعض ما سبق فقلناه ، معززاً بما سبق لغيرنا فقاله .

كان الدكتور « فولارس » الألماني (١) أول من طرق هذا الباب في ما نعلم ، وجاء بعده ـ في ما أظن ـ رجل انكليزي هو (والف ويلمبور) . وكان مستشاراً (قاضياً) في محكمة الاستئناف الأهلية . فألّف كتاباً بالانكليزية . دعا فيه إلى ما دعا إليه صاحبه (فولارس) من العدول عن العربية الفصحى ، إلى العربية العامية المصرية ، محاولاً إقناع المصريين أن هذا خير لهم . وكانت دعوة هذا القاضي ترجيعاً لدعوة (ولهلم ستنا) أمين دار الكتب المصرية (الخديوية قبلاً) . وألّف كتاباً في صرفها ! . . . وكتاباً في أمثالهـــا ، وقصصاً عامية ونشر ذلك باللغتين : الألمانية والإفرنسية بالحروف الافرنجية ، ليرغّب أوربة في تنفيذ مشروعه : تعليمهم اللغة العامية ، وجعلها لغة العلم والتعليم . ونُشرت كرّاسة وزعت على الجرائد ، حثّاً على هذه اللغة ، وترغيباً فيها ، وكان من بعض الأغنياء الأجانب أن أرصد مبلغاً كبيراً من المال يدفع لمن يستجيب لهذه الدعاية .

وكأن (ويلمبور) وهو القاضي ـ أخذته نزعة القضاء ـ وثقةً منه

---

(١) ألّف هذا الرجل كتاباً بالألمانية ، دعا فيه إلى اللغة العامية المصرية . وجمع فيه ـ على زعمه ـ ، قواعد هذه اللغة . أما ما هي هذه القواعد ومن أين جاء بها ؟ فهذا ما لا نعلمه . . . .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بنفسه ، وبصواب رأيه ـ فدعا إلى اجتماع يحضره رجال العلم لمناقشة مشروعه (١) .

وكتب المستشرق الدكتور مرتين هرتمن (Martin Hartmin) أستاذ اللغات الشرقية في برلين مقالة ضافية : « ذكر فيها الفائدة التي تعود على علوم اللغة العربية من جميع ألفاظها العامية . جاء فيها بفذلكة في تاريخ اللغة العامية من صدر الإسلام إلى الآن . وحث العلماء على درس لغة العامة ، وجمع شتاتها المتفرقة في مصر والشام والمغرب والعراق والحجاز وغيرها . وأورد مثالاً للكيفية التي يريد جمع تلك الألفاظ عليها .

---

(١) انبرى لهذا القاضي عبد العزيز جاويش قائلاً :

« لقد أخطأ المستر (ويلمور) في قوله « إن لغة القطر المصري لغة مستقلة عن العربية الصحيحة ، بعيدة عنها كل البعد . فاللغة المصرية ليست إلا لغة عربية ، دخلها بعض التحريف والدخيل ، وإن أكثر ما يظن أنه مناف للعربية من لهجاتها هو من العربية ، وإنه إذا لم يوافق لهجة قريش الفصحى ، فانه ربما يوافق لغة بعض القبائل الأخرى » .

وأورد له أمثلة على ذلك .

ثم ذكر للقاضي شيئاً كثيراً من عيوب اللغة الانكليزية بين ما ينطق وما يكتب ، وكالحروف « الزائدة » في كثير من الكلمات حتى أن متعلم هذه اللغة يضطر إلى حفظ لفظ كل كلمة وحفظ صورتها في الرسم ، حتى يصح أن يقال : « أن لا قياس في هذه اللغة » .

وسأل الشيخُ المؤلفَ :

لِمَ لا تصلحون هذه العيوب ؟

فأجاب ، لأن ذلك إخلال بتاريخ لغتنا ، ومانع من الانتفاع بالكتب الكثيرة التي أودعت علوم سلفنا ومجدهم .

قال له الشيخ : « إن هذا المانع هو نفسه الذي يمنعنا من استبدال خط لغتنا بخط آخر . كما يمنعنا من التدلي من الصالح منها إلى الفاسد الذي لا يرجى إصلاحه . فاقتنع القاضي وكان عادلاً ، وقبيل هذه الأدلة والبراهين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونشر جدولاً ذكر فيه ألفاظاً من لغات : بيروت والقاهرة وتونس وتفسيرها باللغة الفصحى . »

فإذا بها ألفاظ كثرتها عربية الأصل ، حرفتها العامة تحريفاً منه الظاهر ، ومنه ما فيه بعض الخفاء ، لبعد العهد في التحريف ، واختلاف الأقطار في التصحيف . وقلة ضئيلة ، أُخذت من لغات أجنبية ، اختلفت مصادرها باختلاف ما كان بين قطر عربي وقطر آخر من سيطرة أجنبي أو صلة به . هذا إلى أن بعض ما نسبه المستشرق هارتمن إلى قطر وزعمه مختصاً به ، قد يكون معروفاً في قطر آخر ، ولكنه غير مستعمل فيه ، أو غالب عليه لفظ آخر ، وكله مما لا يستحق هذه الدراسة ولا هذه العناية ، اللتين يذلهما هذا الرجل ، ولا يشغل باله به ، إلاّ عربي حريص على رد العامي إلى الفصيح ، لا إحياء العامية ونشرها في البيئات العلمية والاعتماد عليها في كتابة أو تأليف .

وجملة القول : إن العمل على إحياء اللغة العامية بعثه الغرض أو المرض . غرض استعماري يرافقه انسياق أعمى عن حسن نية عند بعضهم ، أو سوء طوية عند بعضهم الآخر ، أو مرض في النفس عن عجز وقصور في الدرس .

ولسنا نعرف في العرب الصرحاء ، ولا في كتّابهم البلغاء الأبيناء ، من قال باللغة العامية ، ونادى بوجوب نشرها ، وإحلالها محل اللغة الفصحى ، إلاّ أن يكون (زهاوي زاده ، جميل صدقي أفندي) فلقد كتب في مجلة المقتطف سنة ١٨٩٦ مقالاً جاء فيه :

« فاللغة العامية ، لغة يتكلم بها الناس ، سواء رضي البعض أو لم يرض . وأكثر الناس يدرسون العربية لأجل معرفة كتب الدين ، وغيرها من الكتب القديمة الجليلة . فإذا هُذبت اللغة العامية وشاعت . ترى هل ينتفي الباعث المذكور ، كلاّ بل هو باقٍ . فلا مانع حينئذٍ من درس اللغة القديمة لمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يطلب ذلك كما يدرسها الآن ، فإن قيل الاتفاق على وحدة العامية صعب دونه خرط القتاد . قلت : إنا نجاري في ذلك الطبيعة فكل اللغات الموجودة كانت في وقتها فروعاً ثم اتحدت » .

وهذا رأي من أغرب الآراء بادية مقاتله من جميع نواحيه ، وأغرب ما فيه أن يصدر عن الزهاوي وهو من هو في مجالات الأدب من نثر وشعر .

إلاّ أن يكون قال ذلك مسايرة للمقتطف ، وكان رأيها ما كان ، كما جارى الترك يومئذ في : (زهاوي زاده) .

وبعد ، فقوله :

١ — بتهذيب العامية معناه القضاء عليها . فإن العامية إذا هي تهذبت عادت إلى أصلها الصحيح الفصيح .

٢ — وأن تكون مدارسة العربية الفصيحة لأجل معرفة كتب الدين وغيرها من الكتب القديمة ، فليس هو بالسبب الذي يُستهان به . فكل أمة حريصة على تاريخها وعلى أمجادها . وقضية اللغة من هذا لها الصدارة والأولوية .

٣ — وكان الزهاوي رحمه الله يريد برأيه بقاء لغتين وهذه هي الثنائية اللغوية التي يُشتكى منها .

٤ — وقد يكون أغرب ما في هذا الرأي الغريب ، أن نجعل اللغة فروعاً ثم نعود فنوحدها . وبأي لغة من هذه اللغات العامية تتم لها وحدة ؟ وهل توحدت اللغات الغربية التي انشقت عن اللاتينية ، فنرجو لهذه العربية توحيداً بعد تمزيقها .

فالتجزئة تدعو إلى تباعد هذه اللهجات بعضها عن البعض الآخر ، فتصبح كل لهجة لغة مستقلة ، ثم تتباعد عن الأم : اللغة الأصلية ، كما وقع للاتينية مع الافرنسية والإيطالية وسائر ما اشتق منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومشكلة العربية في مذهب القائلين بصعوبتها ، تقوم في رأيهم على هذه الثنائية التي نعانيها ، والتي سلمت منها على زعم بعضهم سائر اللغات ، وهذا خطأ قد يكون كثير منا وقع فيه (١) . غير أن الشيء الذي نشكو منه ،

---

(١) يقول الأستاذ جبر ضومط ـ رحمه الله ـ :

الانكليزية مثلاً ، ترى فيها لغتين : مكتبية وهي الفصحى ، وعامية وهي الدارجة . والفصاحة في المكتبية بالغة أعلى درجاتها في لندن . والدارجة بالغة أحط درجاتها أيضاً في بعض أقسام تلك المدينة ، حيث الفقر والجهل على أشدهما .

ومثل الانكليزية الفرنسية ، ومثل لندن باريس . فان اللغة المكتبية فيها وصلت في كتابات بعضهم إلى ما وصلت إليه تماثيل اليونان الجميلة أو تماثيل ميشال انجلو ، أو إلى ما أشار إليه المتنبي :

والقائل القول لم يترك ولم يُقل

بل في برلين : مدينة العلم والعلماء ، ومدينة الأدب والأدباء ، تهبط اللغة الدائرة على الألسنة في أفواه الأقوام من الغوغاء والحشارة إلى ما لا يستطيع أن يتصور مثله بين أقوام العامية عندنا ـ أبكى الباكين على الفصاحة العربية واندثارها من على الألسنة .

* * *

ثم يقول :

تعرفت منذ عدة سنين بمستشرق أسوجي جاء إلى بيروت ولبنان يدرس اللغة العربية الدارجة . وكان الرجل واحتى يقال : يُفهم ما يقول ، ويفهم ما يُقال .

فقلت له مرة في عرض الحديث :

ـ أعندكم يا أستاذ لغتان : فصحى ودارجة ؟

قال : عندنا .

قلت : مئة بالمئة عندكم يقرأون ، وعندكم لغة دارجة ! إذن ينبغي أن تكون قريبة جداً من اللغة الفصحى لغة (الكتابة) .

قال : بل هي بعيدة عنها .

قلت : وأي الدارجتين من لغتنا ولغتكم أقرب إلى أختها الفصحى ؟

قال : دارجتكم .

وكنت أنتظر جوابه هذا الخالي من العصبية ، لما كنت أتوسم فيه من سعة العلم والفضل والإنصاف . (مجلة السيدات والرجال المجلد ٦ الصفحة ٤٤٩) . =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد عالجناه مراراً ، هو هذا الضعف الخلقي الذي تمكن منا ، فجعلنا نخجل أن نستعمل اللفظ العربي الصحيح ، والأسلوب العربي الفصيح ، وإن صح لفظه ، وعذب معناه ، ونخجل في المقابلة أن نجهل الكلمة الأجنبية مهما كان فيها من ركاكة وغرابة .

والحكومات العربية في الأقطار العربية ، ألقت الحبل في هذا على الغارب ، فتركت دوائرها ومدارسها ومصالحها ، وسائر مؤسساتها ، وشأنهم يتدبرون أمرهم كما يريدون ، لا مأخوذاً على يدهم في إصلاح ، ولا في تعبير . حتى إذا زاد خطأ رئيس من الرؤساء وفحش كان منتهى أمره أن يقول : لست سيبويه ، نقول : وإنه إن لم يكن سيبويهاً ، فليس مفروضاً فيه أن يكون شيئاً آخر غير سيبويه ...

وهذا شيء لا يقوله أحد من نظرائه ، إذا تكلموا لغة أجنبية فأخطأوا ، بل يتجنبون اللحن والخطأ مجتهدين كل الجهـــد في تصحيح ألفاظهم ، وتصويب عباراتهم .

وليست الحكومات غير العربية على هذا ، ولا سيما في مطلع نهضاتها وإرساء قواعدها . يقول العلاّمة الحصري في هذا المعنى :

= ويقول الأستاذ ساطع الحصري :

« إن القول بأنه لا يوجد في فرنسة فرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام ، لا يخلو من المغالاة . فان ذلك إذا كان صحيحاً بالنسبة إلى معظم المدن والقصبات الكبيرة ، فانه بعيد عن الصحة بالنسبه إلى كثير من القرى في بعض الايالات .

فانه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لا يزالون في طور « ثنائية اللغة » فانهم يتكلمون في بيوتهم ، ولا سيما مع العجائز والجدات ، بلهجات عامية ولغات خاصة ، وإن كانوا يتقنون الفرنسية الفصحى ويتكلمون بها خلال اتصالاتهم الخارجية . فاللهجات العامية في فرنسة لم تندثر تماماً وإن كانت قد تضاءلت كثيراً .

(مجلة المجمع)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« إن زوال اللهجات ، يتطلب عملاً متواصلاً ، يستمر عدة أجيال . ولذلك دعا مجلس الثورة (الافرنسية) جميع الناس إلى الاهتمام بهذا الأمر (أمر اللغة) وذلك ببيان أصدره في السنة الثانية للثورة ، جاء فيه :

« فليدفع كل منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسة . لأن تلك اللهجات إنما هي من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد » .

على أن هذا ، لا يمنع من يحرص على لغته ، ويعمل على سلامتها أن يهبط إلى درك العامية ، لا يمنعه هذا من أن يدعو إلى استعمال ما احتفظت به العامة من صحيح فصيح قد يجهله اليوم حتى بعض الخاصة ، ومما أحدثته هذه العامة من ألفاظ موفقة لأغراض محدثة ، جرت في اختيارها على منهج العرب الأصيل . هذا ، إلى ألفاظ اختارت لها العامة لغة صحيحة على أفضل مما تجري عليه الخاصة اليوم وما جرت عليه آباؤها قبل اليوم ، وهو حديث يتلو مقدمته هذه .

عارف النكدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net